هوامش

قبل نحو 500 عام، بنى أهالي محافظة تطاوين في تونس قصوراً بدائية لأهداف غير السكن. وعلى الرغم من جماليتها المعمارية والثقافية، فإنها في حاجة إلى ترميم وقد انهار بعضها

احد قصور تطاوين (العربي الجديد)

قصور تونس

إرث لا تعيره الحكومة اهتماماً

تونس ـ **مريم الناصري**

في محافظة تطاوين الواقعة أقصى جنوب تونس، قصور صحراوية عدة ذات معمار محلّي خاص بالجهة لا شبيه لها في بقية المحافظات التونسية. وعلى مدى سنوات عدّة، ظلت إرثاً مهماً لدى سكان المنطقة.

هذه القصور المبنية من الطين والطوب والحجارة شيدها سكان الجنوب التونسي قبل أكثر من 500 عام بطريقة بدائية. استخدموا سعف النخيل لبناء شبابيكها وأبوابها وأسقفها. أما بلاطها، فصنع من التراب أو الطين الأحمر. كلّها مواد طبيعية استخدمت لتشييد البيوت القديمة. واللافت أنها ما زالت صامدة حتى اليوم، على الرغم من انهيار أسقف وجدران بعضها.

يبلغ عدد تلك القصور نحو 160 قصراً، غالبيتها موزعة على قمم الجبال. ويتراوح عدد غرف القصر الواحد ما بين 300 و500 غرفة، موزعة على ثلاثة طوابق أو أكثر على علو أربعة أمتار. وتُسمى تلك القصور بأسماء تنسب إلى القبيلة التي شيدتها على غرار قصر «العواديد» وقصور «أولاد سلطان» وقصور«أولاد عون» وقصور «أولاد بوبكر» وغيرها، علما أنها متشابهة في الشكل وطريقة البناء.

ولم تبن تلك القصور بهدف السكن، بل خصصت أساساً لتخزين المحاصيل على غرار القمح والشعير والزيت والذرة وغيرها من المؤونة. تلك المحاصيل تعد مخزون القبائل على مدار العام. ويشرف على حمايتها وحفظها كبير شيوخ القبيلة وكل من لديهم خبرة في تخزين المحاصيل لأطول فترة ممكنة، وتوزيعها على الأهالي عند الحاجة في فترات مختلفة.

ويقول الباحث في التراث والآثار، المبروك الأزعر، لـ «العربي الجديد»، إنها كانت أيضاً استراحة للتجار القادمين من بلدان أفريقيا لتبادل السلع والعبيد في فترة ما. ويعود تشييدها إلى أكثر من 600 سنة، وقد اختارت غالبية القبائل بناءها على مرتفعات معزولة عن التجمعات السكانية، لتكون مطلة على بقية السكان وواضحة لكل أجنبي، ولحفظها من الفيضانات أو الانزلاقات الأرضية في المنخفضات.

كما يشير إلى أنّ «طريقة بنائها بنوع من الحجارة الخاصة بالجهة، يحفظ المحاصيل من شدّة البرد وارتفاع درجات الحرارة. لذلك، بقيت صامدة سنوات طويلة. لكنّها اليوم مهجورة ولا تحفظ المحاصيل الزراعية فيها. وأصبحت فقط معماراً تراثياً خاصاً بالجهة، تقام فيها بعض المهرجانات الصيفية، وتعتبر مزاراً للتونسيين والسياح الأجانب».

عبد الحميد سلطان أحد المنتمين إلى قصر أولاد سلطان، يقول لـ «العربي الجديد» إنّ «غالبية سكان المنطقة يحافظون على تلك القصور ويرممونها بإمكانياتهم الذاتية، لأنّها تعتبر تراث الأجداد وهوية المنطقة التي تُعرّف بخصوصيات الجهة. وباتت تقام فيها مهرجانات بدوية خصوصاً في الصيف. وتستقبل عشرات الفرق الفلكلورية من العالم العربي على غرار المغرب وليبيا والجزائر وموريتانيا وغيرها. كما تشهد توافد آلاف السياح سنويا لمشاهدة تلك العروض وخصوصاً في الصيف لحضور المهرجانات التي تتميز بعروض خاصة بسكان الصحراء والبادية».

وقد شيدت غالبية تلك القصور على شكل دائري تتوسطها ساحة كبيرة كانت تعتبر استراحة لدواب التجار القادمين من البلدان الأفريقية الأخرى، كما تُنصب فيها الخيم لاستقبال التجار والوافدين. تلك الساحات باتت اليوم مكاناً مخصصاً لاستقبال السياح، الذين يقيمون في خيم صغيرة، أو تقام فيها بعض الخيم التي تعرض منتجات خاصة بالجهة سواء ملابس أو أطعمة أو مفارش للتعريف بخصوصيات الجهة. وتقام في ساحات بعض القصور الأخرى العديد من عروض الرقص الخاصة بسكان البادية.

من جهته، يقول أحد سكان المنطقة شافعي عوني لـ «العربي الجديد»، إنّ «المعهد الوطني للتراث ساهم في ترميم العديد من تلك القصور. رغم ذلك، اندثر بعضها بسبب العوامل المناخية فيما انهارت غالبيتها. إلا أن السكان يقدمون أحياناً بعض المساهمات المالية لترميم العديد من القصور، خصوصاً تلك التي تقام فيها المهرجانات الصيفية. ويحاول كلّ من يرمم تلك القصور استخدام المواد الأولية نفسها التي بنيت بها حتى لا تُشوه أو تفقد خصوصيتها». يضيف أنّ تلك القصور تمثل إرثاً لا يستغني عنه سكان المنطقة على الرغم من أنّها لم تعد تستعمل لحفظ المؤونة أو المحاصيل، ولكنّها تستقبل السياح سنوياً وتضفي حركة على الجهة».

ويشير رئيس جمعية صيانة التراث في منطقة غمراسن في الجهة، حبيب علجان، إلى أنّ «العديد من قصور الجنوب انهارت نهائياً اليوم. والمعهد الوطني لحماية التراث اهتم بكلّ الآثار في تونس ما عدا تلك القصور، لأنّها لم تدرج بعد ضمن التراث الوطني. كما لا تخصص ميزانية سنوية لحماية تلك القصور على الرغم من كونها تمثل مورداً سياحياً هاماً، يستقبل سنوياً آلاف السياح الحاضرين في المهرجانات الصحراوية». يضيف: «تم ترميم البعض منها بالإسمنت، ما أفقدها جماليتها وخصوصيتها وشكلها القديم».

وعلى الرغم من تأكيد العديد من سكان الجهة والجمعيات التي تعنى بالتراث، أو المشرفين على المهرجانات الصحراوية البدوية، على ضرورة ترميم تلك القصور لأنّها تعتبر مصدراً أساسياً لجذب السياح إلى الجنوب التونسي، إلاّ أنّ العديد منها بات ركاماً، فيما ينتظر البعض الآخر الترميم بسبب تشقق أسقفها وجدرانها، وبالتالي لا يمكن للسكان تنظيم عروض ثقافية فيها خشية انهيارها.

وأدرج مركز التراث العالمي في آخر تحديث لموقعه قصور ومنازل الجنوب التونسي في القائمة التمهيدية للتراث الثقافي المادي العالمي.

باختصار

يبلغ عدد تلك القصور نحو 160 قصراً، غالبيتها موزعة على قمم الجبال. ويتراوح عدد غرف القصر الواحد ما بين 300 و500 غرفة، موزعة على ثلاثة طوابق أو أكثر على علو أربعة أمتار. وتُسمى تلك القصور بأسماء تنسب إلى القبيلة التي شيدتها على غرار قصر «العواديد» وقصور «أولاد سلطان» وقصور«أولاد عون» وقصور «أولاد بوبكر» وغيرها، علماً أنها متشابهة في الشكل وطريقة البناء

■■■

أدرج مركز التراث العالمي في آخر تحديث لموقعه قصور ومنازل الجنوب التونسي في القائمة التمهيدية للتراث الثقافي المادي العالمي

وأخيراً

سلمان زيمان... جرس الأغنية الآسرة

سعدية مفرح

قبل نحو خمسة عشر عاما، قال الفنان البحريني سلمان زيمان: «رغم كل السواد، أنا متفائل إلى أبعد الحدود بأن الأمور ستؤول إلى الحرية والاستقرار والسعادة والفرح والعلوم والفضاء، إلى درجة أنني مستوعب بأن الكرة الأرضية قرية صغيرة واحدة. أنا أحكي بعد مائة سنة. لست مستعجلا. المهم أن نصل بدون حروب، بدون أن نفقد أحدا، وبدون سجون، وكل شيء غير ذلك، ومنها الكوارث الطبيعية، نستطيع تحملها». وعلى الرغم من أنني لم ألتق به، ولم أسمعه، منذ زمن طويل، إلا أنني واثقة أنه رحل قبل أيام، وهو ما زال يحمل ذلك التفاؤل الذي ميز شخصيته الجميلة دائما في أغنياته ويومياته المفعمة بالحب والفن والسلام. التقيت أبا سلام، رحمه الله، أول مرة قبيل تركه الإقامة في الكويت بأشهر قليلة عام 1987، وكنت يومها على أعتاب التخرّج من الجامعة. وعبر معارف وأصدقاء، زرت عائلته في منزلها في منطقة الفروانية في الكويت. وتناولت طعام الغداء بحضور السيدة النبيلة زوجته وبعض شقيقاته وزوجة شقيقه خليفة الفنانة هدى عبد الله. كانت أسرةً تتناول الأغنية على مائدة الطعام، وتناقش قضايا الأمة بين أكواب الشاي، وكان الجميع بينهم يمتلئ بالفن والأمل والأمنيات.

خرجت من منزلهم، وأنا أرفرف سعادةً بتعرّفي إلى هذه الأسرة الفنية الجميلة، والتي كانت قد اشتهرت بتأسيسها فرقة أجراس الغنائية، ذات الطابع المختلف عن السائد الفني في منطقة الخليج تحديدا. كانت الفرقة التي تأسست على أيدي أعضاء تلك الأسرة، وآخرين غيرهم من أصدقائهم الفنانين في بدايات الثمانينيات في البحرين، تغنّي لفلسطين ولقضيتها وقضايا العرب كلها، وتحتفي بقيمة الإنسان عبر قصائد أغلبها فصيحة لشعراء أغلبهم من فلسطين. وكانت أشعار الشاعر الفلسطيني توفيق زياد أحد أهم مصادرها في الموسيقى والغناء. وعندما اشتهرت للفرقة أغنية «ذكريات» من كلماته، فكانت بوابة سلمان زيمان، مغني الفرقة الأول، إلى المتلقي العربي الذي ردّد الكلمات أحيانا بحمولة عاطفيةٍ مضافةٍ لحمولتها ذات المعنى المقاوم على طريق الأمل بالتحرّر الإنساني والوطني: «ولي في ربوع الشمال غرام/ حَيِيٌّ وزنبقة طاهرة/ تعيش على حلمها باللقاء/ على دفء أمنيةٍ عاطرة/ على وجهها سمة الأبرياء/ وفي خدّها حمرةٌ آسرة/ وفي رأسها فِكَرُ العاشقين/ وفي عينها فرحة حائرة/ هي الوحي لي وعروس الخيال/ وملهمةٌ خَطْرتي الشاعرة/ تذكرت والشوق يغلبني/ لقاءً لنا في ربى الناصرة». وعلى الرغم من التحولات الكبرى في قضية العرب، وأغنيتهم أيضا، على سبيل الانحدار غالبا، بقيت أغنية سلمان زيمان من الأغنيات القليلة الصامدة، لا تصالح ولا تهادن، ولا تتخلى عن فكرتها الوطنية والإنسانية العميقة، ولا تغريها مغريات

> رضي أن يبقى معلماً للموسيقى في مدارس البحرين، بعد عود ته من الكويت

الشهرة والذيوع المكلّلة بالرخص والنمط الاستهلاكي العام. رضي زيمان أن يبقى معلما لمادة الموسيقى في مدارس البحرين، بعد عودته من الكويت التي شهدت ميلاده الفني، مضحّيا بكثيرٍ مما تنعم به الفنانون الآخرون في جيله، ممن اعتبروا الأغنية مادة للتسلية وحسب، فقدّموها كما يطلبها المستمعون، غير آبهين بأي رسالةٍ يمكن أن يحملها الفنان، لتكريس وعي الجماهير بقضايا أمتهم.. لكن التزام زيمان المبدئي بقضاياه الوطنية والإنسانية، والتي كلفته الكثير، وحجبت عنه بعض الضوء الإعلامي، لم يكن ليمنع جذوة فنه من الاشتعال في قلوب محبيه الذين كانوا ينتظرون إصداراته الغنائية القليلة بلهفة ووفاء.. وهكذا توالت أغنياته، وبقيت حية في ذاكرة الفن العربي: «أقبل العيد»، و«يا مقلة عيني»، و«هيفاء»، و«الطائر الهيمان»، و«أم الجدائل»، و«أبو الفعايل»، و«ولي في ربوع الشمال»، «الحب أسرار»، و«كان ذا أول»، و«أحلى الليالي»، و«بعدت عني»، وغيرها من أغنياتٍ ساهمت بتشكيل وجدان جيل نشأ في زمن التحولات التي أرهقت روحه واقتسمت وعيه. رحم الله أبا سلام، والعزاء لأسرته ومحبيه في كل مكان.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**